مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 53 (شتاء 2003)، ص 148
www.palestine-studies.org

كتب بالعربية

إسرائيل في خمسين عاماً:
المشروع الصهيوني من المجرد إلى الملموس

(3 أجزاء)

الياس شوفاني

دمشق: دار جفرا للدراسات والنشر، 2002.

يتعاظم الرأي في العالم في أن ما تمخضت عنه الأحداث الثلاثة الكبرى، قبل ما أخذ يقترب من العقد ونصف عقد، المتمثلة في نتائج حرب الخليج الثانية، وتفكك الاتحاد السوفياتي، وثورتيْ المعلومات والاتصالات، أسَّس لعصر جديد في العالم. ومع القول بـ "جِدّة" هذا العالم، فإنه يظل وارداً أن يضاف إلى ذلك أن الجدة المذكورة لا تُلغي انتظامها في علاقة مركبة بمِهادها التاريخي والاقتصادي والسياسي المتمثل في نمط الإنتاج الرأسمالي الإمبريالي. ومن ثم، من الراجح القوي ألاّ يؤخذ القول – في هذا السياق – بقطيعة تاريخية وبنيوية بين الطرفين. وكون الأمر يتجلى في هذين الأخيرين كليهما، فإن الأسئلة الجديدة التي ينتجها العصر "الجديد – العولمي" لا تلغي سابقاتها، بقدر ما يسعى الباحثون فيها لتأصيلها وتعميقها وتدقيقها في ضوء تلك، أي الأسئلة السابقة.

وتبرز أهمية تلك الأطروحة السياسية والأيديولوجية والاستراتيجية، بصورة خاصة، على صعيد البحث في المشروع الصهيوني، منذ بواكيره الأولى حتى الآن، وفي ضوء السؤال عن مصيره أو مصائره. ولعل الحدثين التاليين، ونعني بهما انتفاضة سياتل وانتفاضة فلسطين، قد قاما بمهمة تأسيسية جديدة على صعيد المواجهة التاريخية الجديدة للنظام العولمي الجديد الصهيوني، أو للمشروع الصهيوني العولمي الأميركي. وقد نرى – مع بعض التحفظ الآني – أن هذين الحدثين يمثلان، مجتمِعين،

أول شرخ تاريخي مفتوح في بنية ذلك النظام – المشروع. وكي نستكمل هذه الفرضية تدليلاً وتعميقاً، نرى أن أحداث "الحادي عشر من أيلول/سبتمبر" أريد لها أن تطفو على سطح العالم كرد عالمي أول على ذلك. وإذا كان العالم قد عبر عن احتفائه بـ "الحدث الفلسطيني" مقترناً، الآن، بإدانة الحرب المبيَّتة ضد العراق، فإن الاحتفاء بـ "الحدث السياتلي"، وإنْ امتد عمقاً وسطحاً في أوروبا وأميركا خاصة، إلاّ إنه لم يُستقبل في العالم العربي والإسلامي على نحو كاف من الاهتمام.

والآن، إذا كانت جموع من الباحثين قد أخذت تشير إلى بواكير المواجهة للعولمة الأميركية الصهيونية وتدعو إلى تأسيس "عولمة مضادة"، فلعل من الحصافة السياسية والعلمية أن نرى في ذلك رداً على "العصر الجديد الأميركي الصهيوني"، وتبشيراً بـ "عصر أكثر جِدَّة". وهذا يضعنا أمام حالة من تداخل العصور وما يقترن بها من سجالات وتناقضات وصراعات مفتوحة وأُخرى يُصَرّ على إبقائها مغلقة. وحيث يكون الأمر كذلك، أو على نحو آخر مقارب، فإن البحث العلمي فيه يكتسب أهمية نظرية وسياسية كبيرة. أمّا ذلك فبسبب أنه يسعى لإماطة اللثام عن حقيقة الأمر بقدْر أو بآخر، ليعلن حصيلته مهمازاً للتقدم في العمل السياسي والثقافي الأيديولوجي لدى الطامحين إلى تغيير نظام عولمي يهدف إلى "ابتلاع الطبيعة والبشر، ومن ثم إلى هضمهم وتمثّلهم وتقيؤهم سلعاً في السوق الكونية السِّلْعية ـ القرية الكونية الواحدة."

هنا، في هذه الزاوية المرهفة والخطرة والمهمَّشة عربياً إلى درجة موجعة، تأتي الأهمية المنهجية والنظرية والتاريخية لبعض الأعمال الكبيرة، التي أخذت تظهر هنا وهناك في دور النشر العربية.

إن العمل الذي أنجزه الباحث الدكتور الياس شوفاني يمثل واحداً من تلك الأعمال، بل لعله يأتي في طليعتها؛ ونعني به الكتاب الذي صدر مؤخراً في ثلاثة أجزاء، والذي نحن في صدده. وكما يتضح من عنوانه، فإن المهمة التي وضعها الباحث أمام ناظريه تتمثل في ملاحقة وفحص المشروع المذكور في عملية تحوله من بنية نصّية احتمالية استراتيجية إلى حالة سياسية وسوسيو – ثقافية مشخَّصية. وبكيفية محددة، أراد الباحث التصدي للمشروع المعني، بعد أن ولج مرحلة التطبيق مع تأسيس دولة إسرائيل سنة 1948، حيث أعلنت ذلك قيادة المنظمة الصهيونية العالمية/الوكالة

اليهودية. بيد أن ذلك لم يكن ممكناً خارج السياق التاريخي، الذي نما فيه وتأسس وأفصح عن اتجاهاته العامة. وهذا ما حدده المؤلف حين لخصه على النحو التالي: "لم تتوقف نية وضعه [الكتاب] عند حد تقديم مقاربة أُخرى مختلفة لفهم طبيعة المشروع الصهيوني فحسب، وإنما تعدت ذلك إلى رفد هذه المقاربة بالوقائع التاريخية والسياسية، وإلى تعزيزها بوافر من المعلومات عن نشأة هذا المشروع الاستيطاني وسيرورته، وعن دوره الوظيفي وعلاقاته الداخلية والخارجية" (جـ1، ص 5).

وقد نرى أن العمل الذي أنجزه شوفاني في هذا المؤلف يأتي الآن بمثابة تتويج لجهد بحثي مركز قام به طوال أعوام كثيرة، استطاع فيه أن يقدم أطروحة مركزية نرى أن الأعوام المئة المنصرمة، وخصوصاً منها ما هو راهن، تقدم أدلة متنامية على رجحان صدقيتها المعرفية، أو – على الأقل – على كونها أطروحة مثمرة وخصبة لحوار مثمر وخصب في موضوع البحث المعني هنا. وقد قدم الباحث شوفاني أطروحته انطلاقاً "من أن المشروع الصهيوني في فلسطين هو ظاهرة استيطانية، حكَم دورُها الوظيفي الإمبريالي صياغتَها اليهودية، شكلاً ومضموناً، وبناء على ذلك، فقد جاءت على شكل (مركز إقليمي مضاد) للحركة القومية العربية، قاعدته الاستيطانية في فلسطين المحتلة، ودوره العدواني في دول المحيط." ويتابع شوفاني محدِّداً مرجعية أو مرجعيات هذا "المركز"، فيرى أنه "نتاج عمل مشترك بين الدول الإمبريالية، وكل منها في حينه، وبين الحركة الصهيونية العالمية، حيث شكلت كلتاهما معاً (البلد الأم) للمستوطَن اليهودي في فلسطين. ولكن هذه الشراكة لم تكن قط متكافئة بطبيعة الحال، إذ غلب الشق الإمبريالي فيها على اليهودي" (المصدر نفسه).

إن ما يحدده الباحث على أنه "شراكة" بين الأطراف المذكورة قد يضعف رأيه السابق في "أن المشروع الصهيوني في فلسطين هو ظاهرة استيطانية، حكم دورها الوظيفي الإمبريالي صياغتها اليهودية، شكلاً ومضموناً." فلعلنا نرى – في الإجمال المبدئي – أن العلاقة بين تلك الأطراف تتحدد بكونها علاقة من التبعية البنيوية والوظيفية من طرف المشروع لمصلحة الإمبريالية، التي تمثّل العولمةُ الراهنة امتداداً لها، على نحو ما أتينا إلى ذكره سابقاً؛ مع الإشارة – بطبيعة الحال – إلى أن العلاقة المذكورة أكثر تعقيداً وتركيباً من ذلك. وهذا ما يمكن تبيُّنه من خلال الأنشطة

السياسية التي يمارسها اللوبي الصهيوني في واشنطن، الذي يُعرف منذ سنة 1959 باسم "إيباك". ففي البرنامج الذي صدر عن هذه المنظمة الصهيونية سنة 1987، يرد – على سبيل المثال – ما يلي: "وعلى الرغم من التوترات والخلافات في الرأي، فإن العلاقة المتميزة بين إسرائيل والولايات المتحدة استمرت لتصل إلى ذرى جديدة من التعاون، بسبب قوة هذه الروابط التي تربط الحليفين معاً." ويتابع البرنامج معلناً: "تمتلك إسرائيل القوة، والاستقرار، والموقع الاستراتيجي، لتعزيز المصالح الغربية في الشرق الأوسط وشرق البحر المتوسط" (المصدر نفسه، ص 378، 379). وعلى كل حال، تبقى العلاقة المذكورة بين مد وجذر، من دون أن تفقد ركائزها الحاسمة، التي يبقى للفعل الوظيفي الإمبريالي الدور في الصوغ اليهودي للمشروع، شكلاً ومضموناً، ناهيك عن صوغه كبنية سياسية صهيونية.

وفي مناقشة للباحثيْن دان هوروفيتس وموشيه ليساك، يضع الباحث الدكتور شوفاني يده بدقة وعمق على ما انطلق منه في النظر إلى "الظاهرة الصهيونية" بمثابتها مشروعاً استيطانياً، لكن، من زاوية أُخرى، هي الصراع الطبقي في التجمع الاستيطاني، والصراع بينه ككل وبين سكانه الأصليين (الفلسطينيين). فالباحثان المذكوران، في محاولتهما تفسير ضعف الوعي الطبقي لدى الإسرائيليين بأسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية وأيديولوجية، يهملان ما يراه شوفاني حاسماً على هذا الصعيد. أمّا هذا الحاسم فيقوم على أن "خصوصية الوضع الإسرائيلي تكمن أساساً في طبيعته الاستيطانية، التي تغلّب التناقض مع أهل البلد الأصليين على الانقسامات الداخلية المستشرية بين الجماعات المستوطنة" (المصدر نفسه، ص 482). وهذا ما جعل شوفاني يميز بين "مجتمعات غربية مستقرة، لا تمت بصلة إلى التجمع الاستيطاني التراكمي في إسرائيل"، وبين هذا التجمع (المصدر نفسه، ص 482)؛ وهو تمييز نرى أنه صحيح عامة وإجمالاً، بقدر ما قد ينطبق – على الأقل جزئياً – على العلاقة بين المجتمع الأميركي الشمالي ذي الأعراق والإثنيات والثقافات المتعددة (متحف الشعوب أو الأمم/Museum of Nations) وبين المجتمعات الغربية (الأوروبية) المستقرة. ولعل هذه الخصوصية للمجتمع الاستيطاني الإسرائيلي هي التي أخمدت أصواتاً عربية كانت ترتفع بفكرة أن الخلاص من المشروع الصهيوني في إسرائيل قد يمر عبر استكماله وتعمّق التناقض والصراع الطبقيين فيه على نحو يؤدي إلى إعادة بنيته لمصلحة قوى

تاريخية جديدة تقدمية.

وثمة أمر ذو حساسية سياسية وأيديولوجية حادة كان ولا يزال يثير أسئلة وخلافات في أوساط من النظام السياسي العربي، ويقوم على تحديد العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة خاصة، وعلى الإجابة عن السؤال التالي: هل يمكن للعرب أن يراهنوا على الولايات المتحدة في صراعهم مع إسرائيل، أو – بنحو آخر – ما نسبة الأوراق التي تملكها الولايات المتحدة في حقل الصراع العربي – الإسرائيلي؟ ههنا، يجب الإشارة إلى أن فضلاً عميقاً قدمه الدكتور شوفاني في عمله، على هذا الصعيد. فقد أماط اللثام عن العلاقة الناظمة بين الولايات المتحدة وإسرائيل بصفتها "ثكنة عسكرية" يمثل الجيش الإسرائيلي فيها إحدى "قطعات الآلة العسكرية الغربية، وتحديداً الأميركية". ومن ثم، "شكلت الأداة العسكرية العمود الفقري للمشروع الصهيوني"؛ كما أن "المؤسسة العسكرية [هي] ركيزة أساسية للتطور الصناعي الإسرائيلي" (جـ2، ص 572). ويسخر شوفاني بمرارة حين يذكر أن الولايات المتحدة، التي أقامت جسراً جوياً بينها وبين إسرائيل في حرب 1973، تحولت – بموافقة النظام السياسي العربي الرسمي – إلى وسيط "نزيه" بينها (أي إسرائيل) وبين العرب، بغاية التوصل إلى "حل عادل" لـ "الفريقين المذكورين".

ويتناول شوفاني مسألتين من مسائل "تطور" المشروع الصهيوني، مُلْقياً ضوءاً قوياً على التعرجات والاختراقات التي طرأت عليه منذ البدايات حتى الآن. ولعل المسألة الأولى منهما – وقد تُمثِّل أحد تجليات التناقضات والخلافات التي أفصحت عن نفسها في أوساط الساسة والقادة الاستعماريين البريطانيين أنفسهم – تُظهر إلى أي مدى كان على المفكرين والسياسيين الصهيونيين أن ينافحوا في سبيل "مشروعهم". فردّاً على بلفور في موقفه المدافع عن الصهيونية، يورد شوفاني ما قاله اللورد سيدنهام في مجلس اللوردات: "إن الضرر الناجم عن إلقاء شعب أجنبي على عربي – والعرب في كل مكان بالمنطقة الخلفية – قد لا يعالج أبداً... فما فعلناه بتنازلنا، لا للشعب اليهودي وإنما لقطاع متطرف صهيوني، هو أننا بدأنا قرحاً نازفاً في المشرق، ولا أحد يدري إلى أي مدى سيمتد هذا القرح" (جـ3، ص 185). لقد تميز الباحث، في هذا وغيره، بأنه لم يركن إلى ما يُقدَّم بأقلام كتّاب عرب وآخرين على أنه

"تاريخ ذو بعد واحد" للمشروع الصهيوني، فوضع يده على مثل تلك الوثيقة، مُدلِّلاً على أن تاريخ الصهيونية لم يتخذ مساره وفق الرأي المبسَّط الشائع والقائل بأن الحركة الصهيونية كانت تفرض نفسها كقوة قاهرة في كل حقل تطؤه.

وعلى الرغم من ذلك فقد امتلك الباحث عدة البحث التاريخي بعمق وعلى نحو مفتوح فوضع يده على واحدة من أكثر القضايا إشكالية على صعيد الصراع العربي – الإسرائيلي، وذلك حيث اكتشف آلية التقابل بين وعي صهيوني مراوغ ووعي عربي زائف. يكتب شوفاني أن الصهيونية وإسرائيل نجحتا "إلى حد كبير في جعلنا نفهمهما كما أرادتا لنا ذلك، فخضنا الصراع معهما على هذا الأساس. أمّا هما فقد سعتا لفهمنا كما نحن، وخططتا للصراع معنا على هذا الأساس أيضاً." أمّا الإعلام فقد "نجح... إلى حد كبير في تشويه طبيعة الصراع في المنطقة، الأمر الذي لم يستطع الجانب العربي تقويمه، فصار دفاعه العادل عن النفس عدواناً" (جـ1، ص 8).

أمّا المسألة الثانية، المتصلة بتطور المشروع الصهيوني، فقد تناولها شوفاني برؤية تاريخية ملحوظة بكيفية منهجية صارمة، وهي موقف الحركة الصهيونية من "العلمانية". فهو يرى أن الأولى "انطلقت... حركةً علمانية، وظفت في منطلقاتها الاسترجاعية التراث الديني اليهودي؛ ولكنها في المحصلة كانت قطعاً مع الحياة اليهودية التقليدية في أوروبا، وخاصة الشرقية منها" (جـ3، ص 19). وما قد يستحق التنويه ههنا يقوم على أن الحركة الصهيونية في بواكيرها ما كانت – في أساس الموقف – ذات علاقة بنيوية بالأيديولوجيا الدينية التوراتية؛ ذلك بأنها نشأت في أوساط مختلطة دينياً. أمّا الناظم، الذي جمع بين هؤلاء، فقد تمثل في السياسي، لا في الديني. وهذا بالضبط ما وضع شوفاني يده عليه بمثابته ظاهرة "استيطانية" تجسدت في "ثكنة عسكرية" تابعة للآلة العسكرية الغربية وأُطرها الاقتصادية والأيديولوجية والاجتماعية. ومن ثم، فإن عملية توظيف التراث الديني أتت مع الصعوبات التي أخذت تنشأ في وجه المشروع الصهيوني على نحو أخذت تبرز فيه هذه العملية بمثابة المدخل إلى سجال في شأن حق يهودي تاريخي في العودة إلى البلد المقدس.

ويخلص الباحث الدكتور الياس شوفاني، في بحثه المفصل والمعمق في حيثيات المشروع الصهيوني نظراً وتطبيقاً، إلى أن هذا الأخير، بعد مرور خمسين عاماً على

تأسيسه وخمسين عاماً على تطبيقه، لم يستطع أن يحقق أهدافه الكبرى، إلى درجة أن "المركز – الإمبريالية" تلجأ "إلى تحقيق (تسوية) للنزاع العربي – الإسرائيلي، اقتناعاً منه بأن إسرائيل غير قادرة على إنجاز المهمة المطلوبة بقوتها الذاتية" (المصدر نفسه، ص 159).

ولعلنا نضيف أن الدكتور شوفاني، الذي أنجز عمله الكبير هذا قبل اندلاع الانتفاضة الراهنة، سيرى في هذه الأخيرة عنصراً جديداً هائلاً من عناصر أزمة المشروع الصهيوني، ودافعاً في اتجاه الكشف عنها بمثابتها مدخلاً، أو أحد المداخل العظمى، إلى مشروع عربي تحريري ونهضوي جديد. إن كتاب الدكتور شوفاني العتيد هو تعبير عميق عن ارتقاء مستوى البحث العلمي العربي في المشروع الصهيوني، في مرحلة يغنيها وتغنيه؛ فله عظيم التحية!

طيب تيزيني

أستاذ الفلسفة

في جامعة دمشق

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf